

النفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (34-95): تفسير الآية 87، الأخذ بالأسباب والتوكيل
على الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-04-1999

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسمعون القول فيتبعون أحسنها، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الرابع والثلاثين من سورة البقرة.

كثرة الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى بني إسرائيل لا تعني أنهم مفضلون بل مشاكسون:

مع الآية السابعة والثمانين وهي قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرَّسُولِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَاتِ وَآتَيْنَا هَارُونَ بِرُوحَ الْقُدْسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهُوَى أَنفُسُكُمْ إِسْتَكْبَرُّمُ فَقْرِيْقَا كَذَّبُمْ وَفَرِيْقَا تَفَلُّوْنَ) (87)

أيها الأخوة الكرام، بدأ ذي بدء حينما يسأل سائل: لماذا أرسل الله أنبياءً كثيراً لبني إسرائيل؟ هذه الظاهرة عليهم لا لهم، من باب التمثيل والتقريب، الطالب الكسول قد يأتيه أبوه بعشرات الأسنان، والذي معه مرضٌ عُضال قد يأتي له أقرباؤه بعشرات الأطباء، فكثرة الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى بني إسرائيل لا تعني أنهم مفضلون؛ بل تعني أنهم مشاكسون، هذه حقيقة أولى، هذه ليست لهم بل هي عليهم، لأن الله عز وجل يقول:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) (87)

الكتاب هو التوراة، وهو كتاب بني إسرائيل الأول.

الفرق بين النبي والرسول:

قال تعالى:

(وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرَّسُولِ) (87)

النبوة شيء والرسالة شيء آخر، الرسول معه كتابٌ من عند الله، معه رسالة، معه رسالة جديدة تنسخ الرسالة السابقة، أما النبي يرسله الله عزَّ وجلَّ كما يرسل الرسول ؛ ولكن النبي يُرسَل ليشرح رسالة سابقة، فسيدنا لوط، وسيدنا زكرياً، وسيدنا يحيى:

(ولَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نُفَصِّلْنَا عَلَيْكَ) (78)

(سورة غافر: من آية 78)

هؤلاء جاؤوا ليشرحوا لأقوامهم كتاب الله عزَّ وجلَّ، ليشرحوا التوراة، فسيدنا موسى نبيهم الأول، أنزل الله عليه التوراة، والأنبياء الذين جاؤوا من بعده شرحوا لأقوامهم مضمون هذا الكتاب، فالرسول معه كتابٌ من السماء، أما النبي فقد أرسله الله للمؤمنين ليشرح لهم كتاباً سابقاً، كل رسولٍنبي وليس كلنبي رسول.

لكن الشيء الذي ينبغي أن نقف عنده وقفة متأنيَّة هو: أن كمال الله عزَّ وجلَّ يقتضي إرسال الرسل، حينما يخلق الله خلقه دون أن يعلمهم بسر خلقهم، دون أن يعلمهم بمنهجه الذي يؤدي إلى سلامتهم وسعادتهم فهذا يتناقض مع كماله، فحينما تُعطَّل مفهوم الرسالة فقد وصفت الله بما لا يليق به، وأوضح مثل ؟ أب جالس في بيته وابنه الصغير اقترب من المدفأة، هل يبقى ساكتاً ؟ هل يبقى جالساً ؟ أم ينطلق لينصحه ويبعده ؟ وقد يقوم من مكانه ليأخذه، فمن مستلزمات كمال الله عزَّ وجلَّ ألا يترك عباده معطَّلين عن الأمر والنهي.

إرسال الأنبياء والرسُّل من لوازم كمال الله:

النقطة الدقيقة أن هذا الكون المادي الذي هو تحت سمعنا وبصرنا ينطق بعظمة الله، ينطق بوجوده، وينطق بوحدانيَّته، وينطق بكماله، هذا الكون ينطق بكمال الله، ومن مستلزمات كمال الله ألا يدع عباده معطَّلين عن الأمر والنهي والمعرفة، لا بد من أن يبلغهم، خلقهم في الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً هو ثمن سعادتهم الأبدية في الآخرة، خلقهم في الدنيا ليتعرَّفوا إلى الله، ليتعرَّفوا إلى منهجه، ليتعرَّفوا إلى سر وجودهم وغاية وجودهم، ما من قوم إلا وأرسل الله لهمنبياً لقوله تعالى:

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) (7)

(سورة الرعد)

إرسال الأنبياء والرسُّل من لوازم كمال الله، كما أن من بديهيَّات الأبوة أن ينصح الأب ابنه، وأن يأمره، وأن ينهاه، فإذا بقي ساكتاً والأخطار محدقة بالابن هذا ليس أباً، المثل مُبَسَّط وواضح، فالله عزَّ وجلَ ما كان ليخلق الخلق ثم يدعهم هكذا في جهالةٍ جهلاً:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً)

(سورة البقرة: من آية " 213 ")

فاختلوا:

(فَبَعَثَ اللَّهُ التَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ)

(سورة البقرة: من آية " 213 ")

على كلٍ فانه عزٌّ وجلٌ قال:

(إِنَّ عَلِيْنَا لِلْهُدَى (12))

(سورة الليل)

حيثما جاءت (على) مقترنة بلفظ الجلاله تعني أن الله جل جلاله ألزم ذاته إلزاماً، فالله عزٌّ وجل عليه أن يهدي خلقه.

الكون تجسيد لأسماء الله الحسنى ومظهر لصفاته الفضلى:

كيف يهدي الله تعالى خلقه ؟ أول شيء هداهم بالكون :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَافِ الْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَأْتِي لِأَوْلَى الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قَيْمَاماً وَقَعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

وقال:

(إِنَّ عَلِيْنَا لِلْهُدَى (12))

(سورة الليل)

هداهم بالكون، والكون تجسيد لأسماء الله الحسنى ومظهر لصفاته الفضلى، فإذا أردت أن تعرف الله فتفكر في خلق السماوات والأرض، كل شيء خلقه الله له وظيفتان ؛ وظيفة كبيرة جداً أن تعرف الله من خالقه، ووظيفة صغيرة أن تنتفع به في الدنيا، الوظيفة الصغيرة تنتهي عند الموت ؛ لكن الوظيفة الكبيرة - وظيفة الإرشاد - هذه تستمرة معك إلى أبد الآبدين، هذا الكلام ينطلق من قول النبي عليه الصلاة والسلام لمَّا رأى هلاً قال:

((هَلَالُ خَيْرٌ وَرُشْدٌ))

[أبو داود عن قتادة]

هلال خير أنتفع به في الدنيا، ورشد يرشدني إلى الله عزٌّ وجلٌ، هذا الذي يأكل، ويشرب، ويتزوج، ويتنعم، ويري الربيع، والخريف، والشتاء، والصيف، ويأكل من الفواكه أنواعاً كثيرة، ولا يفكر في هذا

الخلق، عطّل أكبر وظيفة لها هذا الخلق، وكان انفاسه بما خلق الله له انفاساً محدوداً جزئياً ينتهي عند الموت.

الإنسان دائمًا تحت التوجيه وتحت التبيين والتبليغ:

أيها الأخوة الكرام عرَّفنا الله عزَّ وجلَّ بذاته من خلال خلقِه، ثُمَّ عرَّفنا بذاته من خلال كلامه، أرسل الكتب، كل رسول جاء بكتاب، وكل نبيٌّ شرح هذا الكتاب، إذاً كلامه يدُلُّنا عليه، وخلقِه يدُلُّنا عليه، ثمَّ عرَّفنا بفعله، قال:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١))

(سورة الأنعام)

ثمَّ عرَّفنا من خلال الفطرة، فترك فطرةً خاصةً بحيث لو انحرفت عن منهج الله تضيق نفسك، الإثم ما حاك في صدرك وكسرت أن يطلع عليه الناس، والبر ما اطمأنت إليه النفس، إذاً عرَّفك بذاته من خلال خلقِه، وعرَّفك بذاته من خلال أفعاله، وعرَّفك بذاته من خلال كلامه، وعرَّفك بذاته من خلال الفطرة التي فطرت عليها، وعرَّفك بذاته من خلال الملائكة الذين يُلهمونك الصواب دائمًا، وعرَّفك بذاته من خلال الأنبياء والرسل والدعاة الصادقين، فالإنسان دائمًا تحت التوجيه وتحت التبيين والتبليغ:

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادِ (٧))

(سورة الرعد)

هناك رسل، ونبينا سيد الرسل، وهناك رسل من أولي العزم، وهناك رسل آخرون، وهناك أنبياء، وهناك صديقون، وهناك علماء عاملون، وهناك دعاء طيبون، هؤلاء كلهُم مسخرُون لتعريف الناس بالحق، أما أن تُحْكِمْ وَأَنْ تُثْرَكَ من دون تعليم، من دون توجيه، من دون تبليغ، من دون بيان، فهذا يتناقض مع وجود الله ؛ بل إن الله عزَّ وجلَ يقول :

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥))

(سورة الإسراء)

ما دام الله قد أسمعني الحق فهذه بشاره لك أن الله عالم فيك الخير:

قال بعض العلماء وليس كلُّ العلماء: الرسول هو العقل - من بعض التفسيرات - على كلِّ هناك آية حاسمة:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 23 ")

الدرس (34-95): تفسير الآية 87، الأخذ بالأسباب والتوكيل على الله

إذا وجد إنسان بأقصى الدنيا وفيه ذرَّةٌ من خير لا بد من أن يسمعه الله الحق بطريقَةٍ أو بأخرى، فأنت حينما ساقك الله إلى مكان تستمع فيه إلى الحق هذه نعمة كبيرة

(ولَوْ عِلْمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَا سَمَعُوهُمْ)

فما دام الله قد أسمعك الحق فهذه بشارَةٌ لك أن الله عَلِمَ فيك الخير، لأن هناك ضلالاتٌ في الأرض لا تُحتمل.

هناك من يعبد النار، هناك من يعبد الأصنام، هناك من يعبد الحيوانات القيمة، هناك من يعبد موج البحر، إلى ما هُنالك، هناك من يعبد الشمس، هناك من يعبد البقر، هناك من يعبد الحَجَر، وإذا شرفنا الله بعبادته فهذه نعمةٌ كبرى لا توصف:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرَّسُلِ (87))

هناك شيء ثان مهمٌ جداً في هذا الموضوع وهو أن المتكلّم يحاسب على كلامه، والمستمع يحاسب على سمعاه، ماذا فعلت فيما سمعت؟ المتكلّم يحاسب: هل طبَّقت الذي تكلمت به؟ أما المستمع يحاسب من نوع آخر: ماذا فعلت بالذى استمعت إليه؟ وكان الله عزَّ وجلَ لا يعُذُّ السماع ساماً إلا إذا تبعه تطبيق.

الإدراك الصحيح يقتضي انفعالاً صحيحاً والانفعال الصحيح يقتضي سلوكاً معيناً:

قال تعالى:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُ الْبُكُمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22))

(سورة الأنفال)

يقول: سمعت وهو لا يسمع، لأن السماع الحقيقي يقتضي الاستجابة، ودائماً وأبداً هناك قانون يربط علاقتك بالمحيط، أنت حينما يصحُّ إدراكك تنفعل، وحينما تنفعل تتحرّك، إدراك، انفعال، حركة، أبداً. أنت في بستان رأيت أفعى كبيرة، وبحسب مفاهيمك العلمية والحياتية الأفعى قد تقتل - لدغتها قاتلة - فأنت حينما أدركت أنها أفعى حقيقة لا بد من أن تضطرب، واضطرابك لا بد من أن يدفعك إلى عمل ما ؛ إما أن تقتلها، وإما أن تولي هارباً منها، فعلامة صحة الإدراك عمق الانفعال، وعلامة عمق الانفعال الحركة السريعة، فهذا الذي يرى أفعى كبيرة مخيفة ولا يضطرب، إما أنها ليست بأفعى، أو أن إدراكه غير صحيح.

الذي لا يتتأثر بالحقائق المخيفة هذا إنسان عنده خلل في إدراكه، فأنت حاسب نفسك، الإدراك الصحيح يقتضي انفعالاً صحيحاً، والانفعال الصحيح يقتضي سلوكاً معيناً، طبعاً نحن حياتنا بضعة أيام، الإنسان

الدرس (95)- (87): تفسير الآية 87، الأخذ بالأسباب والتوكيل على الله

بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بعض منه، وأياماً معدودة، والأسابيع معدودة، والأشهر، والسنوات، فإذا جاء يوم القيمة مُفلاسًا يقال له: ماذا كنت تعمل؟
(أَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(84))

(سورة النمل)

طبعاً الجواب:

(وَكُنَّا نُخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(45) وَكُنَّا نُكَدِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(46) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ(47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةٌ الشَّافِعِينَ(48))

(سورة المدثر)

لا يوجد عمل يسمو في الحياة عن أن تعرف منهج الله:

أيها الأخوة، هذا كلامٌ مصيري، هذا كلامٌ له أبعاده، هذا كلامٌ متعلقٌ بالحياة الأبدية، هذا كلامٌ متعلقٌ بما بعد الموت، والموت حق، ولا يستطيع أحدٌ أن ينكر حدث الموت، وأنت في لحظةٍ واحدة تصبح خبراً بعد أن كنت شيئاً:

(هَلْ أَتَىٰ عَلَىِ الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً(1))

(سورة الإنسان)

ثم يأتي العدم فيجعله منسياً، هذه الأيام المعدودة، والأسابيع المعدودة، والشهور المعدودة، والسنوات المعدودة، أساس سعادتك الأبدية أو الشقاء الأبدية لا سمح الله ولا قدر، فهل من الممكن لإنسان أن تأتيه رسالة ولا يفتحها؟ هل من الممكن لإنسان أن يمزق الرسالة قبل أن يفتحها؟ قد تسأل إنساناً: هل اطلعت على القرآن؟ يقول لك: والله لا يوجد عندي وقت، القرآن وهي السماء إلى الأرض هل اطلعت عليه؟ هل فهمت معانيه؟ هل وقفت على مضمونه؟ وعرفت أحكامه؟ هل عرفت حلاله وحرامه؟ هل عرفت وعده ووعيده؟ هل عرفت سر خلق الإنسان في الأرض؟ هل عرفت غاية وجود الإنسان في الأرض؟

(أَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(84))

(سورة النمل)

كأنما نخوض ولنلعب، ليس هناك من عمل يعلو في الحياة على أن تعرف الله، لا يوجد عمل يسمو في الحياة عن أن تعرف منهج الله، عن أن تعرف المنهج الدقيق افعل ولا تفعل، لأن كل واحد منا يحرص على سلامته وعلى سعادته حرضاً لا حدود له.

الله عز وجل يمتحن المؤمنين امتحاناتٍ عديدة:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) (87)

أنت عندما يأتيك كتاب هذا الكتاب لكل المسلمين، فيه أمر، بما هو موقفك من الأمر؟ فيه نهي، فيه وعد، فيه وعيد، فيه تشريع، فيه حلال، فيه مواعظ، فيه قصص الأقوام السابقة، فيه المستقبل البعيد، ما موقفك من هذا القرآن؟ الموقف العامي يقول لك: تباركتنا ويقبله، وهذا غير كافٍ بل إن هذا القرآن منهج، هل أحالت حلاله؟ هل حرمت حرامه؟ هل صدقت وعده ووعيده؟ والله الذي لا إله إلا هو إن صدقت إنساناً قوياً منبني جلتكم ما يفعل فإنه لا يمكن أن تخالفه أبداً، فهل تصدق أن الله عز وجل بيده كل شيء؟

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

(سورة هود: من آية 123 ")

الله عز وجل يمتحن المؤمنين، يمتحنهم امتحاناتٍ عديدة، قد يمتحنهم بأنه يقوى الكفار عليهم، هل ينسون ربهم؟ هل يؤلهون غيره؟

هذا أسلوب في البلاغة يذكر الكل ويقصد البعض ورد في الآيات التالية:

ذكرت مرة قوله تعالى:

(حَتَّىٰ إِذَا أَخْدَتِ الْأَرْضُ رُخْرُفَهَا وَازْيَّنَتْ)

وصفٌ دقيق:

(وَظَنَّ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس: من آية 24 ")

توهم بعض أهلها، قد تقول لي: الله قال في الآية: أهلها، وأنت تقول بعض أهلها، والجواب: هذا أسلوب في البلاغة يذكر الكل ويقصد البعض، أوضح دليل عليه:
(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ)

(سورة البقرة: من آية 19 ")

هل يمكن ذلك؟ بل يضع واحدة فقط، ذكر الكل وأراد البعض:

(حَتَّىٰ إِذَا أَخْدَتِ الْأَرْضُ رُخْرُفَهَا وَازْيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

كل بقعةٍ في الأرض تحت استطلاع أقمارهم، وكل بقعةٍ في الأرض في القارات الخمس تحت مرمى طائراتهم:

الدرس (34-95): تفسير الآية 87، الأخذ بالأسباب والتوكيل على الله

(وَظَنَّ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَعْنَ بِالْأَمْسِ)

آيات من الذكر الحكيم تطمئننا أن الأمر كله بيد الله وحده:

نحن في هذه الأيام في أشد الحاجة إلى القرآن ليطمئننا أن الأمر بيد الله وحده:
(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من آية " 123 ")

ليطمئننا أن:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَيلٌ)

(سورة الزمر)

ليطمئننا أن:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من آية " 54 ")

ليطمئننا أنه:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٌّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدٌ)

(سورة الكهف)

ليطمئننا أنه:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من آية " 84 ")

ليطمئننا أن:

(يَدُ اللَّهِ فُوقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من آية " 10 ")

ليطمئننا أن يد الله تعمل وحدها، وكل ما تقع العين عليه من قوى الشر إنما هي عصيٌّ بيد الله عزّ وجل، يؤكّد هذا المعنى قول الله عزّ وجل:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ (55) إِلَيْيَ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ أَخْذُ)

بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبَّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

آيات أخرى من الذكر الحكيم نحن في أمس الحاجة إليها لتطمننا:

نحن في أمس الحاجة إلى هذه الآيات:

(وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ شَنْسَخُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

وقال:

(لَا يَعْرِتَكُمْ تَقْلِبُ الدِّينِ كَفَرُوا فِي الْبَلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبَئْسَ الْمِهَادُ (197) لِكُنْ الَّذِينَ أَتَقْوَا رَبَّهُمْ)

(سورة آل عمران)

وقال:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْتَأْ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرَحُوا بِمَا أَوْثَوْا أَخْدَنَاهُمْ بَعْثَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام: من آية " 44 ")

هذه حقائق مريحة، قد ترى قوى الشر متمكّنة، قوى الشر تفعل ما تريد، قوى الشر تنزل أشد العقاب في إنسان يبدو لك بريئاً، لئلا يختل التوازن ينبغي أن تعرف الحقيقة: وهي أن الأمر بيده.

الحق عند الشاردين عن الله هو القوة:

قال تعالى:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا (59))

(سورة الأنعام)

إذا وقع صاروخ !! أيهما أقرب إلى الفهم ورقة من أوراق الخريف أم صاروخ ؟ كم ورقة تسقط في الخريف ؟ الأشجار كلها تتراقص أوراقها في الخريف وهو سبحانه يعلمه جميعها، فالصاروخ أولى وأقرب للفهم:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا (59))

(سورة الأنعام)

إذا وقعت شظية أو وقعت قبلة يعلمها، والأمر بيده، لكن الله عز وجل قال:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَتُنَصَّرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا (4))

(سورة محمد: من آية " 4 ")

قلت اليوم: الحق عند الشاردين عن الله هو القوة فقط فأنت على حق لأنك قوي، هذا الحق عند الشاردين عن الله، والحق عند المؤمنين هو ما جاء به القرآن الكريم وما جاءت به السنة الصحيحة، هذا

الدرس (34-95): تفسير الآية 87، الأخذ بالأسباب والتوكيل على الله

هو الحق، مَاذَا فعل سيدنا صلاح الدين رحمة الله تعالى بأهل القدس حينما فتحها؟ هل ذبحهم؟ إنه لا يستطيع لأن لديه منهجاً، بل بالعكس شكت امرأة له فقد ولدها فوق ولم يجلس حتى أعيد لها ولدتها، أما حينما فتح الفرنجة القدس ذبحوا سبعين ألفاً في ليلة واحدة، المؤمن مقيد بالحق، والحق ما جاء به الكتاب.

الحق في الإسلام هو ما جاء به القرآن والسنة:

أخواننا الكرام، بعدها فتحت بلاد سمرقند وصل إلى أهلها أن فتحها لم يكن شرعاً، لأن فتح البلاد وفق المنهج الإلهي يجب أن تعرض عليهم الإسلام، فإن أسلموا فلهم ما لل المسلمين وعليهم ما على المسلمين، فإن لم يسلموا تعرضاً عليهم الجزية؛ إن دفعوها فهم في أمان، فإن أبوا دفع الجزية يقاتلون، فيبدو أن الجيش الإسلامي الذي فتح سمرقند بدأ بالقتال، لم يعرض الإسلام على أهلها ولم يعرض عليهم الجزية، فبعض أهل سمرقند عرفوا هذه الحقيقة، فأرسلوا خلسة وفداً إلى عمر بن عبد العزيز يشكون إليه أن فتح بلادهم لم يكن وفق الشرع، الشيء الذي لا يصدق أن هذا الخليفة الراشد أرسل قصاصة صغيرة، ورد فيها هكذا: إلى قائد جيش المسلمين في سمرقند، اخرج من سمرقند، انتهي الأمر، بلد فتحت بالحديد والنار، هكذا، هذا الوفد ما صدق، فهل يعقل أن تتسبّب دولة محتلة لأرض بمجرد كتاب يصل للقائد، وتخرج منها؟ فأخذوا هذا الكتاب وهم بين مصدق ومكذب، ثم تجرّؤوا وأعطوا هذا الكتاب لأمير المسلمين في سمرقند، فقبل الكتاب، وأمر بإخراج الجندي من سمرقند، فلما رأوا هذا، قالوا: نحن قبلنا بكم وأسلمنا.

الحق في الإسلام هو ما جاء به القرآن والسنة، قوي أو ضعيف هذا موضوع آخر، أما الحق عند الشاردين: إذا كنت قوياً فانت على حق، فهل من الممكن أن تطرد إنساناً ليس له ذنب، وتأخذ هويته، وتجعله بلا هوية، تأخذ مركبته، وتجعله في العراء وهو يبلغ من العمر ثمانين أو تسعين سنة، وأطفال صغار ما ذنبهم؟

(وَإِذَا الْمَوْعُودَةُ سُئِلتُ (8) بَأَيِّ ذَنْبٍ فُتِّلَتُ (9))

(سورة التكوير)

الحق يحتاج إلى قوة كي تدعمه وأن تكون أقوىاء هذا أمرٌ تكليفي وليس أمراً تكوينياً:

الحق ما جاء به الكتاب والسنة، أما الحق يحتاج إلى قوة كي تدعمه، وأن تكون أقوىاء هذا أمرٌ تكليفي وليس أمراً تكوينياً، من قال: كل هذا ترتبيه، هذا كلام ساذج:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رَبَاطِ الْحَيْلِ ثُرْهُبُونَ بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 60 ")

الآن العلم قوَّة، الآن المعركة معركة علم فقط، فأمام قائد الطائرة شاشة يظهر عليها إشارة ضرب، تظهر المنشأة الضخمة، أو المعلم الضخم على الشاشة، ومهمة قائد الطائرة أن يضع هذه الإشارة فوق المنشأة فقط، ثم يضغط زرًا فتدمر، أين الشجاعة؟ أين الإقدام؟ الغي كله، الأسلحة الحديثة ألغت كل قيم الفروسية والبطولة، قد يكون إنسان من أجبن الناس، وينتصر بأزار، فلذلك الأرض:

(حَتَّىٰ إِذَا أَخْذَتُ الْأَرْضَ رُخْرُفَهَا وَازْيَنَتْ وَظَنَّ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَعْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس: من آية " 23 ")

أيها الأخوة الكرام، لا بد من أن يُظهر الله آياته في العالمين، الله هو القوي، هو المتصرّف، هو الفعال، لا يقع شيءٌ في كونه إلا بإذنه وأمره دققاً:

(وَمَا شَقَّطْتُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا (59))

(سورة الأنعام)

قصة أم سيدنا موسى وقصة سيدنا يوسف دلائل من القرآن على أنه ما من إله إلا الله:

قال تعالى يتحدث عن أم سيدنا موسى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمَّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ)

(سورة القصص: من آية " 7 ")

هذا أول أمر:

(فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

(سورة القصص: من آية " 7 ")

هل قال: إذا خفت عليه ضميء إلى صدرك، ضعيه في سريرك، لا، لم يقل هذا، بل قال:

(فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزِنِي إِنَّا رَادُوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7))

أمران، ونهيان، وبشارتان، لأن الصندوق بيد الله عز وجل.

إخوة سيدنا يوسف عندما وضعوه في الجُب:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لِتُبَيِّنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15))

(سورة يوسف)

وقال:

(قَالُوا أَتَنَا لَأْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيغُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (90)

(سورة يوسف)

الشرق والغرب وقعوا في الخطأ لأنهم توهموا أن الأسباب تخلق النتائج:

كل هذه القصص من أجل آية واحدة:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَكَنِّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

هذا هو الإيمان، التوحيد، ليس إلا الله، ما من إله إلا الله، مهما رأيت قوى الشر تتغطّر، مهما رأيت قوى الشر تعالى، مهما رأيت قوى الشر تبطش:

(يَدُ اللَّهِ فُوقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من آية " 10 ")

هذا الإيمان، ومن دون هذا الإيمان يُسْحَقُ الإنسان، من دون هذا الإيمان يختل توازنه:

(وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقِيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَاتِ وَأَيَّدَنَا بِرُوحِ
الْقُدْسِ (87))

ربنا عز وجل لحكمة باللغة جعل لكل شيء له سبب، لكن أيها الأخوة الحقيقة الدقيقة هي: أن هذا السبب لا يخلق النتيجة، النتيجة من خلق الله تعالى ولكنها اقترنـت بهذا السبب، وكل إنسان يتـوهمـ أنـ الأسباب تـخلقـ النـتـائـجـ فقدـ أـشـرـكـ، لذلكـ الشـرقـ وـالـغـربـ وـقـعـاـ فـيـ الـخـطـأـ، الشـرقـ عـصـىـ، وـالـغـربـ أـشـرـكـ، كـيـفـ؟ـ الغـربـ أـخـذـ بـالـأـسـبـابـ وـاعـتـمـدـ عـلـيـهـ وـأـهـلـهـ وـعـبـدـهـ مـنـ دـوـنـ اللهـ فـأـشـرـكـ، وـالـشـرقـ لـمـ يـأـخـذـ بـهـاـ فـعـصـىـ، يـقـولـ النـبـيـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ:

((إِنَّ اللَّهَ يَلْوُمُ عَلَى الْعَجْزِ، وَكَنِّ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ))

[أبو داود وأحمد عن عوف بن مالك]

أمـثلـةـ مـنـ الـوـاقـعـ عـنـ أـنـاسـ أـخـذـاـ بـالـأـسـبـابـ وـاعـتـمـدـواـ عـلـيـهـاـ فـأـشـرـكـواـ وـخـسـرـواـ :

يـجبـ عـلـيـ أـنـ أـتـحـرـكـ وـأـخـذـ بـالـأـسـبـابـ وـبـعـدـهـ أـتـوـكـلـ عـلـىـ اللهـ عـزـ وـجلـ، فـالـطـرـيـقـ المـثـالـيـ طـرـيـقـ ضـيقـ، هـنـاكـ وـادـ علىـ الـيـمـينـ وـهـنـاكـ وـادـ علىـ الـيـسـارـ ؛ـ وـادـ آخرـ، عـنـ الـيـمـينـ وـادـيـ الشـرـكـ، وـعـنـ الـيـسـارـ وـادـيـ الـمعـصـيـةـ، أـنـتـ إـنـ أـخـذـ بـالـأـسـبـابـ وـاعـتـمـدـتـ عـلـيـهـاـ فـقـدـ أـشـرـكـتـ، هـنـاكـ قـصـصـ كـثـيرـةـ جـداـ:

الباخرة تيتانيك، وهي أضخم باخرة صُنعت في القرن التاسع عشر، بُنيت هذه الباخرة في عام 1912، وقالوا في نشرتها أو كتبها: هذه الباخرة لا يستطيع الفَدَر أن يغرقها، لأنها صُنعت من جدارين، وبين الجدارين أبواب كثيرة، فأي مكان خُرِقت فيه أغلقت الأبواب الجانبية، فمنع تسرب الماء إليها، لذلك لم يعن صانعوها بقوارب النجاة فيها، وفي أول رحلة لها من أوروبا إلى أمريكا، وعليها أثرياء العالم، وحلي النساء ببضعة عشرات الملايين ارتطمت بجبل ثلجي فشطرها شطرين، ولم يستطع أحد أن يُنجدها لأنهم ظنوا أن إشارات الاستغاثة هي أصوات الاحتفالات، فما أُنجدها أحد، ومات معظم ركابها، قال بعض القساوسة: إن غرق هذه الباخرة درسٌ من السماء إلى الأرض.

أرسلت مركبة فضائية سميت المُتحدي - challenger - وطبعاً كل شيء على الكمبيوتر، وجرى عدٌ تنازلي، وضبط إلى أقصى الحدود، فيها سبعة رواد فضائيين مع امرأة، وبعد إطلاقها بسبعين ثانية كانت كتلة من الأهـب، وانتهى الأمر.

أرسل اليهود قبل عامين طائرتين لاعتقال بعض المسلمين ليلة القدر في لبنان، كان على الطائرتين - فيما علمت من الأخبار الموثوقة - مئة وخمسة وعشرون ضابطاً من نخبة ضباطهم؛ كلهم من الكوماندوس، حيث كلف تدريب كل ضابط مئات الآلاف بل الملايين، يتقنون اللغات، والمصارعة اليابانية، والقتال بالسلاح الأبيض وما إلى ذلك، الطائرة العلوية وقعت فوق السفليّة، والطائرتان وقعا فوق مستعمرة، وما مُنِي اليهود منذ أن أنسؤوا دولتهم حتى الآن بخسارة أبلغ من هذه الخسارة، مئة وخمسة وعشرون ضابطاً من نخبة ضباطهم، استمعوا إلى الصندوق الأسود فإذا فيه آخر ما قاله الطيار في الطائرة العلوية قال: " أنا أسقط ولا أدرى لم أسقط "، أما أهل الإيمان فبعضهم قال: ألم يقل الله عزَّ وجلَّ:

(سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5))

(سورة القدر)

أنت في بيت الله أنت في سلام، فلما أرادوا أن يأخذوا الناس من المساجد، وأن يستغلوا ليلة القدر، بطش الله عزَّ وجلَّ بهم، قصص كثيرة، طبعاً هذه بعض القصص، وأحياناً يمكن الله عزَّ وجلَ الكافر من خططه، يمكنه لحكمة يُريد لها، وقد لا يمكنه.

كل شيء وقع أراده الله وكل شيء أراده الله لا بد واقع:

الشيء الدقيق جداً في هذا الدرس: أن كل شيء وقع أراده الله، ما دام وقع فإن الله أراد وقوعه، لو دخل لص إلى بيتك، لا تقل: هكذا يريد الله، لا، يجب أن تقاومه، ليس معنى إذا سمح الله له بالدخول أن تبقى ساكتاً، وأن ترحب به، وأن تعطيه ما يريد، لا يجب أن تقاومه، أن تقبض عليه، أن تبلغ عنه الجهات

الدرس (95)- (87)، الأخذ بالأسباب والتوكيل على الله

المسؤولة، لكن اطمئن أن كل شيءٍ وقع فقد أراده الله وكل شيءٍ أراده الله لا بد واقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، إن أخذت بالأسباب لا تعتمد عليها بل اعتمد على الله، لو كان عندك مركبة وأردت أن تسفر فهل ستقول: أنا فحشت كل أجزاء المركبة، والجاهزية عالية، ولن يحدث معي شيءٌ؟ هذا شirk، لو كنت تركب أحدث مركبة قد يُصيبها الخلل، أما إذا قلت: أنا أخذت بالأسباب وتوكلت على الله، هذا هو الموقف المثالي.

دقّوا أيها الأخوة، يجب أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيءٍ، ويجب أن تعتمد على الله وحده وكأنها ليست بشيءٍ، هكذا فعل النبي في الهجرة، سيدنا عيسى جاء من دون أب فقد ألغى الله السبب، وكذلك العقيم فقد عطّل الله السبب، زوجة شابة وزوج شاب لا يُنجبان، وامرأة تنجب بلا زوج، فالسبب ملغى في حالة سيدنا عيسى، أما في حالة المرأة العقيم السبب معطل، هناك سبب ولكن ليس هناك إنجاب، وقد لا يكون هناك سبب لكن هناك إنجاباً، وهذا من أجل أن لا نؤله الأسباب، فالله عزّ وجل يخرق العادات، لماذا يخرقها؟ ليفتنا إليه، فالامر بيده، إرادة الله طريقة لا يحدُّها شيءٌ.

ما أَخْرَّ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مَوْقِفُ التَّوَكِّلِ :

أيها الأخوة الكرام، أريد أن أنهي الدرس بهذه الحقيقة المهمة جداً قضية الأسباب والنتائج، مرّةً ثانية: الغرب أله الأسباب واعتمد عليها، والشرقيون لم يأخذوا بالأسباب فعصوا الله، هؤلاء اعتمدوا عليها فأشركوا ونحن لم نأخذ بها فعصينا، الموقف الكامل أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيءٍ ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيءٍ هذا الموقف الصحيح، لذلك ما الذي جعل المسلمين مختلفين؟ لأنهم ما أخذوا بالأسباب، أوضح مثل: تَقَاهَةٌ غَيْرُ مَغْسُولَةٍ يَقُولُ لِكَ: كُلُّ وَسْمَ اللَّهِ، لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ، سَمَّ اللَّهُ وَلَا تَخَفُّ، هَذَا كَلَامٌ غَيْرُ شَرِيعِيٍّ، خُذْ بِالْأَسْبَابِ، اغْسِلُهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، قَدْ تَغْسِلُهَا بِالصَّابُونِ وَيَكُونُ فِيهَا دُوَاءً جَهَازِيًّا مُسْرِطَنَ ضَمِّنَ التَّقَاهَةِ، أَنْتَ اغْسِلُهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

((قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أَطْلُفُهَا وَأَتَوَكَّلُ قَالَ: اعْقِلُهَا وَتَوَكَّلْ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

اجمع بينهما، ففي دراستك، في عملك، في تجارتكم، في سفرك اضبط المركبة وقل: توكلت على الله، أما أنك لم تراجعها ولم تفحصها منذ اثنين عشرة سنة وتسرع بسرعة مئة وعشرين، فيمكن أن يفلت الميزان، ويقضى على كل من فيها !! يقول لك: ترتيب الله وقضاؤه وقدره، لا، هذا جزاء التقصير، سمح الله بهذا؛ ولكن هذا جزاء التقصير.

الابن مريض ويقول لك: سُلْمَتْهُ اللَّهُ، هَذَا مَوْقِفٌ غَيْرُ إِسْلَامِيٍّ أَبْدًا، هَذَا مَوْقِفٌ فِيهِ جَهْلٌ، خَذْهُ إِلَى أَحْسَنِ طَبِيبٍ وَأَعْطِهِ الْعَلاجَ، وَبَعْدِهَا قُلْ: يَا رَبِّي سُلْمَتْهُ لَكَ، وَادْفِعْ صَدْقَةً، مَا أَخْرَى الْمُسْلِمِينَ إِلَّا هَذَا المَوْقِفُ مَوْقِفُ التَّوَكُّلِ:

"مَنْ أَنْتُمْ؟" ، قَالُوا: "نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ" كَانَ سَيِّدُنَا عُمَرُ صَرِيحًا فَقَالَ لَهُمْ: "كَذَبْتُمُ الْمُتَوَكِّلَ مِنْ أَقْلَى حَبَّةً فِي الْأَرْضِ ثُمَّ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ".

لَمْ يَدْرِسْ طِيلَةُ الْعَامِ أَمَا نَجَحْتُ؟ لَا وَاللَّهِ مَا فِي نَصِيبِ أَنْجَحِ هَذِهِ السَّنَةِ، هَذَا الْكَلَامُ لَا مَعْنَى لَهُ لَا، أَنْتَ مَقْصُرٌ، بِالْتَّجَارَةِ، بِالدِّرَاسَةِ، بِكُلِّ حِرْكَاتِكَ، بِعَلَاقَاتِكَ، خَذْ كُلَّ الْأَسْبَابِ وَكُلَّهَا كُلَّ شَيْءٍ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكُلَّهَا لَيْسَ بِشَيْءٍ، هَذَا الْمَوْقِفُ الْكَاملُ.

يحتاج النصر بالمعركة إلى إيمان وإلى إعداد:

العرب في ماضيهم المتألق أخذوا بالأسباب، أنشؤوا أسطولاً بحرياً فحاربوا، وفتحوا جزراً ضخمة، معنى هذا أنه كان عندهم علم، الآن خصومنا وأعداؤنا اعتمدوا العلم وألهوه، نحن رفضناه، اعتمدنا على إيماننا، ولكن ما نجح إيماننا من دون إعداد، يحتاج النصر بالمعركة إلى إيمان وإلى إعداد، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمَنْ رَبَطَ الْخَيْلَ ثُرْهُبُونَ بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية 60)

وَسَعَ كَلْمَةُ مَعْرِكَةٍ كَثِيرًا، صَارَ الْإِقْتَصَادُ الْآنَ مَعْرِكَةً، الْعَالَمُ يَسِيرُ بِطَرِيقِ الْبَقاءِ لِلْأَقْوَى؛ الْأَقْوَى عِلْمًا، وَالْأَقْوَى تَطْبِيقًا، فَأَنْتَ الْآنَ كَمْسُلُمٌ يَجُبُ أَنْ تَكُونَ مَتَّلِقًا، وَالْمَتَّلِقُ يَحْتَاجُ إِلَى عِلْمٍ، الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ يَقُولُ: "إِذَا أَرَدْتَ الدُّنْيَا فَعُلِّيْكَ بِالْعِلْمِ، وَإِذَا أَرَدْتَ الْآخِرَةَ فَعُلِّيْكَ بِالْعِلْمِ، وَإِذَا أَرَدْتَهُمَا مَعًا فَعُلِّيْكَ بِالْعِلْمِ"، "الْعِلْمُ لَا يَعْطِيْكَ بَعْضَهُ إِلَّا إِذَا أَعْطَيْتَهُ كَلْكَ، فَإِذَا أَعْطَيْتَهُ بَعْضَكَ لَمْ يَعْطِكَ شَيْئًا".

إِنِّي أَتَمَّنُ أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُ مَتَّلِقًا، الْأَوَّلُ فِي الْدِرَاسَةِ، وَالْأَوَّلُ فِي التَّجَارَةِ، لَأَنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ رِسَالَةً، أَنْتَ سَفِيرُ الْمُسْلِمِينَ، تَمَثِّلُ الْمُسْلِمِينَ بَدْءًا مِنْ مَظَاهِرِكَ، بَدْءًا مِنْ اخْتِصَاصِكَ، مِنْ دِرَاسَتِكَ، مِنْ عَمَلِكَ، أَنْتَ قَدوَةً وَمَثَلًا:

((أَنْتَ عَلَى ثُغْرٍ مِنْ ثُغْرِ إِسْلَامٍ فَلَا يُوتَيْنَ مِنْ قِبَلِكَ))

[ورد في الأثر]

الإسلام منهج أخلاقي:

وَاللَّهُ أَنَا أَفْخَرُ كَثِيرًا بِمُسْلِمٍ صَنَاعِيٍّ، مُسْلِمٍ مُتَفَوِّقٍ، وَلَكِنْ أَحْتَرُمُ الْكُلَّ وَاللَّهُ، لَأَنَّ النَّبِيَّ قَالَ:

الدرس (34-95): تفسير الآية 87، الأخذ بالأسباب والتوكيل على الله

((وَفِي كُلِّ خَيْرٍ))

[مسلم عن أبي هريرة]

احترم أي مؤمن:

((كُمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمْرِينَ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَأَهُ))

[الترمذني عن أنس بن مالك]

والله لقلمة ظفر مؤمن فقير ضعيف أفضل عند الله من ملء الأرض من الكفار، قلمة ظفره، قد يكون ضعيفاً، قد يكون مستخدماً، حاججاً، ولكنني أتمنى أن يكون المؤمن متالقاً، ادرس، خذ شهادة، كن الأول بتجارتك، بعملك، بعلاقتك، لأنك تمثل الدين، لو أرسلت الدولة سفيراً فمن تبعث؟ هل تبعث إنساناً جاهلاً باللغة؟ لا يحمل شهادة، أمياً؟ هل من الممكن هذا؟ مستحيل، بعض الدول ترسل سفيراً يحمل ثلاثة شهادات ليسانس، هناك مدرسة خاصة للسفراء ليدرسوا العلوم، والآداب، والحقوق، ويتقنون من ذكى الناس، لأنه يمثل أمّة، فأنت تمثل الإسلام، كل مسلم يمثل الإسلام، أنت سفير المسلمين، فإذا كانت مواعيده غير دقيقة، هنديك غير حسن، علاقاتك غير منضبطة، حساباتك غير صحيحة، وهذا هو المسلم؟ لا يستحب أحدنا أن يكون الإنسان بعيد عن الدين منضبطاً وذو الدين غير منضبط؟ حاسبته: أين دفاتر وسجلات الحساب؟ لا يوجد سجلات فالحساب تمام، لا ليس كذلك، بين، ما دمت أنت نظيفاً، فيبين الوثائق والفوائير والأسعار، تجد غير ذي الدين منضبطاً وهذا شيء مؤلم جداً والمؤمن فيه تسبيب، أنا أريد مؤمناً منضبطاً، مؤمناً واضحاً.

أدق شيء أقوله في هذا الدرس: الإسلام منهج أخلاقي، هكذا قال سيدنا جعفر النجاشي: " كَنَا قوماً أهـلـ جـاهـلـيـةـ ؛ نـعـبـدـ الأـصـنـامـ، وـنـأـكـلـ الـمـيـتـةـ، وـنـأـكـلـ الـفـوـاحـشـ، وـنـسـيـءـ الـجـوـارـ، وـنـقـطـ الرـحـمـ، حـتـىـ بـعـثـ اللـهـ فـيـنـاـ رـجـلـاـ نـعـرـفـ أـمـانـتـهـ - انـظـرـ إـلـىـ نـعـرـفـ أـمـانـتـهـ - وـصـدـقـهـ وـعـفـافـهـ وـنـسـبـهـ، فـدـعـانـاـ إـلـىـ اللـهـ لـنـعـبـدـ وـنـوـحـدـهـ، وـنـخـلـعـ مـاـ كـانـ يـعـبـدـ آـبـاـوـنـاـ مـنـ الـحـجـارـةـ وـالـأـوـثـانـ، وـأـمـرـنـاـ بـصـدـقـ الـحـدـيـثـ، وـأـدـاءـ الـأـمـانـةـ، وـوـصـلـةـ الرـحـمـ، وـوـحـنـ الـجـوـارـ، وـوـكـفـ عنـ الـمـحـارـمـ وـالـدـمـاءـ ". هذا هو الإسلام.

أجمل ساعة هي ساعة الصلح مع الله:

الإسلام أن تكون صادقاً، الإسلام أن تكون أميناً، الإسلام أن تكون عفيفاً، الإسلام أن تربى أولادك، الإسلام ألا تستخدم معيارين بل معيار واحد، هذا هو الإسلام، أما الصلاة فهي عبادة شعائرية، وقد تكون فارغة، فالصلاحة فرض ولكنك إذا أديتها ولم تتهاك هذه الصلاة عن الفحشاء والمنكر لم تقطف ثمارها، إذا صُمِّت رمضان ولم يقربك إلى الله عز وجل فأنت خائب خاسر:

((مَنْ لَمْ يَدْعُ قُولَ الزُّورِ وَالْعَلَمَ بِهِ فَنِيسَ اللَّهُ حَاجَةً فِي أَنْ يَدْعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري عن أبي هريرة]

إذا أنفقت مالك ولم تبع به وجه الله فلا خير منه، والله قال:

(قُلْ أَنْفَقُوا طُوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَّقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُلُّنَّمَا فَاسِقِينَ (53))

(سورة التوبه)

إذا أديت العبادات التعاملية كما أرادها الله في الأصل انعكست في العبادات الشعائرية، فالصلاحة صلة، وقد أعجبتني عبارة إنسان حين قال لي: صار لدى خط ساخن مع الله، الإنسان أحياناً يفتح الهاتف فلا يجد خطأ بل الخط مقطوع، أما إذا سمعت صوت طنين معنى هذا الخط ساخن، فقال لي: صار لي خط ساخن مع الله، صرت أناجيه لأنني تبت له، واستقمت على أمره، أجمل ساعة هي ساعة الصلاح مع الله، والإنابة إليه، والتوبة إليه، والإقبال عليه، وأنت حينما تتعرّف إلى الله تجده، قال عليه الصلاة والسلام: ((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء))

[مختصر تفسير ابن كثير]

والحمد لله رب العالمين